

ذكر رجوع الأمير أبي الوفاء توزون إلى داره بعد هزيمة الديلمي وركوبه الظهر ورجوعه في الماء

ولما فتح الله على الأمير المظفر أبي الوفاء توزون، وأظفره بالديلم، وأقام في
عسكره أياماً، وأنفذ في طلب المنهزمة من يقتل ويأسر، ولم يعجل برحيل ليتبين
آخر أمر عدوه، وما زال هذا من فعل الحزمة ذي الرأي المصيب، والعزم
الصحيح.

وأمر أصحابه بالرجوع إلى منازلهم، مسرورين بما صار إليهم من سلب
الديلمة وسوادهم، بعد أن كثر عند الأمير على بعضهم، فما نفس بذلك عليهم،
ولا سأل عنه، ولا عرض به.

ثم رحل إلى بغداد، وركب على الظهر في يوم الأربعاء لسبع خلون من ذي
الحجة، فمضى في شارع المخرم إلى الجسر، ودعا الناس له، ثم انصرف في الماء
إلى داره، وكانت ركبته هذه ركبة ما ركب أحد مثلها قط إلى خليفة؛ لأنه كان
بين يديه مائة جنينة ودابة وبغل بالسروج المذهبة والمهضضة، وبين يديه وخلفه
من الغلمان الأترار، بألوان الثياب وأحسن السيوف والمناطق وأفره الدواب،
وهم عدة، ما اجتمع لأحد منذ مدة طويلة مثلهم. وما من قائد من قواده بعد
هذا إلا وهو مساوٍ بعدته وعدته قربه لأجل أمراء النواحي وأصحاب
الأطراف الممتنعين بها.

ووافق في ذي الحجة أبو علي الحسن بن هارون بغداد برسالة الخليفة المتقي
لله وكتابه إلى الأمير أبي الوفاء المظفر.

وهذا رجل من رؤساء كتاب الزمان ممن خدم الأمراء السادة، وهو حدث
لم يتكهل فحسن خبره، وحمد أثره. كتب ليوسف بن ديوداذ أبي الساج، وهو

الأمير الذي لا تدفع شجاعته ولا يجهل قديمه ورياسته ولا يشك في عقله وأدبه ونفاذه في جميع الأمور، فبلغ به ومعه الغاية التي لا تبلغها الآمال وهو مع كتبه رابط الجأش قوي الشجاعة حسن الفروسية، شهد مع يوسف بن أبي الساج وقعة القرمطي بالكوفة، فما زال ضارباً بالسيف إلى أن علم بأمر صاحبه فحمى نفسه بإقدامه وغلمانته، حتى أقات جريحاً.

وكتب لعلي بن يلبق وهو هني لا يعد، فجعل إليه بتلطفه أمر المغرب كله وشرطة بغداد وحجبة الخليفة، إلى أن خلط عليه فتركه، فأل أمره إلى ما آل إليه، وإنما ذكرت أمر ابن يلبق معه لشيء أجيء به بعد.

سمعت الرازي يقول في خلافته: إنما كتب الحسن بن هارون لابن يلبق رحمة من الله لنا لنبقى، ولولاه لقتلنا القاهر كلنا! ولكنه كان يمنع منا ويحمل ابن يلبق على المناضلة عنا والدفع عن أنفسنا، وكان يصفه كثيراً.

ولقد غنت ستارته يوماً بشعر مليح، فقال: أتعرف هذا اللحن؟ قلت: لا، قال: فالشعر؟ قلت: لا، قال: هذا الشعر كتب به إلى الحسن بن هارون وعمل هذا اللحن فيه، وكان عنده بمنزلة لطيفة. فلما قدم برسالة الخليفة وكتابه بلطف للأمير ابن المظفر إلى أن جمع الناس عنده في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، وفيهم خليفة القاضي أحمد بن إسحاق سهل بن إبراهيم والعدول، وأحضر من العدول من يحسن أن يتكلم بالفارسية، حتى أخذوا على الأمير ما رضي به من القول.

وحضر الهاشميون ووقع الصلح، وانصرف الناس مسرورين، وأنفذ الحسن بن هارون كتاب الأمير إلى الخليفة، ومعه كتابه بما جرى، وانتظر الناس ورود الجواب.

وخلع الأمير على ينال المحتاجي يوم الاثنين لثلاث بقين من ذي الحجة،

وولاه طريق خراسان، فخرج مبادراً في عدة واستظهار، واتصل به وهو يعبر نسا: أن الأعراب قطعوا على قافلة فخرج مبادراً ولم ينتظر أصحابه استهانة بالأعراب، وكان قد أطلق لَصًا يقال أبو الفرج بن مياح بعشرة آلاف درهم أخذها، وكان من حقه أن يُقتل لقطع الطريق، فنظر إليه ابن مياح هذا، وهو في خف فطمع فيه وحرص عليه إلى أن انبرى له، فطعنه فقتله.

فسلط الله عليه اللص الذي أطلقه ظالماً لنفسه، عاصياً لله في إطلاقه حتى قتله، فورثه الأمير أبو الوفاء وأخذ غلمانه ودوابه وأثائه وضياعه، وولى مكانه الفتح للشكري، فطلب الأعراب فهربوا منه ولم يقفوا هـ.

وورد ابن الغمر صاحب القرمطي الذي كان أدخل أيام القاهر مشهوراً ببرنس مع الشريف أبي علي عمر بن يحيى العلوي بغداد مطالباً بهال المفارقة، فكتب له أبو جعفر بن شيرزاد على عمال الكوفة كل ذلك، ليأمن على الحاج وهو يعلم ما عليه في ذلك.

وكان أبو بكر النقيب قد هرب من بغداد إلى ناصر الدولة، قبل شخصو الخليفة عن بغداد، فقبله أحسن قبول وخلع عليه وعلى ولده، وبلغ برزقه ألفي دينار، ومثلها لولده وغلمانه، ثم خرج مع الخليفة إلى الرقة، ثم رجع إلى ناصر الدولة فأقام يأخذ رزقه، ثم كاتب أبا جعفر في مصيره إلى الحضرة واحتال حتى قدم.

وكان أبو جعفر قد وجد على أسكروز الديلمي عامل الشرطة ببغداد في أشياء أنكرها عليه من أخذ الدراهم، وقبالة ثقيلة يلزمها ولاية الشرطة، فكانت الأمير فيه فعزله، وولى مكانه أبا بكر النقيب، وهذا في المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ولما رجع الأمير أبو الوفاء من نهر ديالي ظافراً أنشد شعراً في وصف ما كان

منه ومن أبي جعفر في العزم والرأي، فما وقع عند من حضر الموقع المرضي. فنطقوا بأجمعهم وقالوا لي: مثل هذا الخطب العظيم والفتح الجليل لا يكون له مدح يشتهره الناس ويرويه، فقلت: في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

نِعَمَ الْوَرَى بِسَوَابِغِ السَّنَاءِ وَعَجَّوْا مِنْ الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ
عَضَّدَ إِلَاهَهُ أَبَا الْوَفَاءِ بِنَضْرِهِ عَضَّدَ الْخَلَائِقَةَ سَيِّدَ الْأَمْرَاءِ
فَأَرْبَحَ قَلْبِي مِنْ جَوَى الْبُرْحَاءِ وَهَيَّبَ نَارِ الْوَجْدِ وَالْأَدْوَاءِ
عَادَ الزَّمَانُ إِلَى نَضَارَةِ عَيْنِيهِ وَأَزِيلَتِ الْبُأْسَاءُ بِالسَّرَاءِ
قَدْ وَاصَلَ النَّضْرَ الْمُتَابِعَ سَيْفُهُ كَمَا وَصَالَ جِبَّ كَارِهِ لِحَفَاءِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلْأَعْيَادِي وَقَعَةٌ مِنْهُ تُبِيدُهُمْ وَسَيْفُ فَنَاءِ
فَرَأَاهُمْ لَمَّا رَأَوْهُ مُقْبِلًا كَمَا لَشَاءَ يَنْتَفِرُ مِنْ أَسْوَدِ ضِرَاءِ
صَرَغَى وَقَتَلَى وَاللَّيْذِي فَاتَ الرَّدَى مِنْهُمْ خَلِيفُ الدُّلِّ فِي الْأَسْرَاءِ
ضَحِكْتُ بِهِ الْأَيَّامَ بَعْدَ قُطُوبِهَا وَجَلَا الضِّيَاءُ بِهِ دُجَى الظَّلْمَاءِ
فَصَلُّوا السُّرُورَ قَضَاءَ مَا عَايَنْتُمُوهَا بِالْأَمْسِ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ بُرْحَاءِ
قَدْ عُوِيَ فِي اللَّيْلِ الْمُطِلُّ عَلَى الْعِدَا مِنْ كُلِّ مَا يَشْكُو مِنَ اللَّأْوَاءِ
وَأَتَاهُ نَضْرٌ مِنْ إِلَهٍ مُنْعِمٍ يَقْضِي لَهُ أَبَدًا بِخَيْرِ قَضَاءِ
أَعْيَيْتَ حِيلَتَهُمْ وَفُتَّ مَدَاهُمُ مِنْ غَيْرِ إِنْعَابٍ وَلَا إِعْيَاءِ
تَنَرَّتْ سُيُوفُكَ بِالْقَضَاءِ أَكْفَهُهُمْ فَكَأَنَّهُمْ فِيهِ حَصَى الْبَطْحَاءِ
وَعَطَفْتَ خَيْلَكَ خَاطِفًا أَرْوَاحَهُمْ مِنْ غَيْرِ إِمْهَالٍ وَلَا إِنْطَاءِ
أَنْتَ الْمُعْظَمُ فِي الزَّمَانِ وَمَنْ لَهُ ذَلَّلْتَ رِقَابَ السَّادَةِ الْعُظْمَاءِ

أَبَتِ الإِمَارَةَ أَنْ تَرْوَجَ غَيْرُهُ
وَعَصَى الْمَدِيحُ فَلَيْسَ يُعْطَى طَاعَةً
يَلْهُو بِأَبْطَالِ الرُّجَالِ شِجَاعَةً
مَلِكٌ أَبْرَعٌ عَلَى الْمُلُوكِ بِأَيْسِهِ
أَحْيَا مُحَمَّدُ بْنُ بَجِيحٍ دَوْلَةً
زَيْنُ الْكِتَابَةِ وَابْنُ مَنْ ذَلَّتْ لَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا ظَنَّ الْأَعَادِي أَنَّهُ
إِذَا سَاوَرَ الْإِسْلَامَ سُقْمٌ قَاتِلٌ
فَرَمَاهُمْ مِنْ رَأْيِهِ بِتَوَافِيذِ
وَرَأَى حَبَالِي رَأْيِهِ بَشْرَكَاهُمْ
فِي كَارِ بَرْجِي عَيْنُ رَأْيِ مُجَرَّبِ
سَلَّ بِالْأَمِيرِ وَسَقَفَهُ مَنْ رَامَهُ
ضَرْغَامُهُ دَامِي الْأَظْفَارِ كَلَّمَا
فَكَانَتْهُ فِي سَرْجِهِ يَوْمَ الْوَعَا
وَكَانَتْهَا قُوَادُهُ مِنْ حَوْلِهِ
مُتَلَبِّسٌ جَلْبَابَ صَبْرٍ تَحْتَهُ
شَرَّةَ الْأَعَادِي خَوْفُهُ فَكَأَنَّهُمْ

مِنْ بَعْدِ مَا حُطِّبَتْ أَشْدَّ إِسَاءِ
إِلَّا لَهُ فِي سُؤْدَدٍ وَتَسَاءِ
لَهُوَ الْمَلَاعِبِ فَنَارَ بِسَالِهُوَاءِ
وَقَبُولِهِ مِنْ سَيِّدِ النَّصْحَاءِ
بِصَّحِيحِ عَزْمٍ صَائِبِ الْأَرَاءِ
وَعَلَيْهِ قَدَمَا كَتَبَتْهُ الْخُلَفَاءِ
مَسِيكُونَ مَنْ نَاوَاهُ ذَا اسْتِعْلَاءِ
لَوْ لَمْ يُدَارِكْ سُقْمَهُ بِسُفَاءِ
تُجَدَى بِسَالِهُوَاءِ إِلَى الْأَحْشَاءِ
فَهُوَ الْحَمِيَّتِيهِ هُوِيٌّ دِلَاءِ (١)
مَاضِي الْحَمَامِ لِحَسْمِ هَذَا الدَّاءِ
أَوْ هَاجَهُ فِي حَوْمَةِ الْهَيْجَاءِ
عَرَّتِ التَّوَائِبُ مِنْ دَمِ الْأَعْدَاءِ
بَذَرَتْ تَلَالُفِي سُعُودِ سَمَاءِ
مُسْتَلِيمِينَ كَوَاكِبِ الْجُوزَاءِ
قَلْبٌ كَمُفْلِ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ
خَسِرُ النَّعَامِ بِقَفْرَةِ بَيْدَاءِ

(١) كذا بالأصل ولعلها: ورمي حباله.

أَوْ كُنْدُرٍ يَرْبِ قَطَا أَصْرَ بِهَا الصَّدَى
عَطَفَ الرِّجَالُ إِلَيْهِمْ فَتَعَطَّفُوا
وَأَتَى الْأَمِيرُ بِعِزَّةٍ وَمَهَابَةٍ
حَصِبَتْ بِهِ بَغْدَادُ بَعْدَ جُدُوبِهَا
هَذَا وَفِي أَيَّامِ بَجَاكَمَ كَمَ لَهُ
تَسْوُدُ أَيْدِي غَيْرِهِ فِي حَرْبِهِ
أَطْنَابُ بَأْسِكَ يَوْمَ حَرْبِكَ عُلِقَتْ
فَضَلْتَ كَمَفْضَلِ بَنِي النَّبِيِّ وَصَهْرِهِ
فَرَقَيْتَ فِي دَرَجِ الْمَعَالِي صَاعِدًا
فَسَاقَطَتْ عَطَشًا إِلَى الْأَحْشَاءِ
لِلْأَسْرِ وَالْإِذْلَالِ فَعَلَّ نِسَاءِ
يُخْتَالُ بَيْنَ غِنَى وَيَبِينُ غِنَاءِ
وَتَلَبَّسَتْ مِنْهُ نِيَابَ رِخَاءِ
مِنْ صِدْقِ عَارِفَةٍ وَحُسْنِ بِلَاءِ
فَيَضِيئُهَا قَيْدُ لَهُ بِيَضَاءِ
لِعُلُوبِهَا بِكَوَائِبِ الْعَوَاءِ
فِي نُبْلِ قَدْرِهِمْ بَيْنِي الطَّلْقَاءِ
تَعْلُو عَلَى الْعِظْمَاءِ وَالْكَبْرَاءِ

ولما استكتب الأمير أبو الوفاء توزون أبا جعفر محمد بن يحيى، وقدم بغداد، دخلت إليه فأنشدته:

عَدَلْتُ امْرَأَةً فِي عَشِقِهِ لَيْسَ يَغْدُرُكَ
مَتَى لَمْ تُحْطِ خُبْرًا بِمَا صَنَعَ الْهُوَى
أَمَا لَوْ بَلَوْتَ الْحُبَّ وَاقْتَادَكَ الْهُوَى
شَرِبْتُ كُؤُوسَ الْحُبِّ صِرْفًا وَدُونَ مَا
عَلَى الْيَمْنِ وَالْتَوَيْتُ أَلْبَسْتَ خَلْعَةَ
وَفِي خَضِرِهَا قَاضٍ كَرَأْيِكَ فِي الْعِدَا
رَأَاكَ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْإِمْرَةِ النَّبِي
يُقَدِّمُ لِلْمَقْدُورِ دَهْسَرُ مُعَانِدُ
أَمَّا عَاشَ أَنْ يَنْهَكَ عَنْهُ وَيَزْجُرُكَ
بِمَنْ فَارَقَ الْأَخْبَابَ فَالِدَمْعُ يُخْبِرُكَ
إِلَى هَجْرٍ مُجْتَبُوبٍ لَقَلَّ تَصَبَّرُكَ
شَرِبْتُ مِنَ الْمُمَزُوجِ مَا لَا يُسَكَّرُكَ
بِهَا الْمُتَقِي لِهِيَ الْحَقُّ يُؤْتِرُكَ
بِهِ تَنْقِضِي أَعْمَارُهُمْ وَيُعَمَّرُكَ
يَسَازِجُ فِيهَا جَوْهَرَ الْمَلِكِ جَوْهَرُكَ
سِوَاكَ إِلَيْهَا ظَالِمًا وَيُؤَخَّرُكَ

إِلَى أَنْ وَفَا بِالْوَعْدِ فِيكَ أَبُو الْوَقَا
لَسِنْ كَانَ لِلْأَثْرَاكِ فَخَرَّ بِهَا شِم
مَلَكْتَ فَمَلَكْتَ الْمُنَى كُلَّ رَاغِبٍ
إِذَا كَانَتْ الْأَثْرَاكِ يَوْمًا بِسَيِّدٍ
وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مَا جَدًا مُتَقَدِّمًا
طُبِعَتْ عَلَى عَقْلِ وَجُودٍ وَنَجْدَةٍ
وَسَيِّانٍ فِي الْأَعْدَاءِ نَحْبْرَكَ الَّذِي
وَهَلْ تَحْمَدُ الْأَعْدَاءُ عِنْدَكَ غِرَّةً
وَمَا نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا أَنْتَ حَرْبُهُ
تَحْبِرَكَ الْبَارِي أَمِيرًا مُظَلَّمًا
رَأَيْتَكَ لِلسُّلْطَانِ مُجْهِي^(١) دَوْلَةٍ
تَسَمَّ بِهٍ بِتَكْبِيتِ عَدُوًّا وَحَايِدًا
إِذَا التَّقَاتِ الْأَقْرَانُ وَاحْتَدَمَ الْوَعَا
عُرِفَتْ بِإِقْدَامٍ وَقَتْلِكَ وَجُرْأَةٍ
وَإِنْ جَرَّ يَوْمًا عَسْكَرًا ذُو تَجْمَعِ
تُدْبِرُ فِي تُرْبِ السِّنِينَ أُمُورَنَا
وَعَدْتِكَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ

فَكُلُّ أَمِيرٍ بِالصَّغَارِ يُؤْمَرُكَ
فَقَدْ زَادَهُمْ فِي الْبَأْسِ وَالْفَخْرِ مَفْخَرُكَ
فَمَوْرِدُكَ الْإِحْسَانُ وَالْحَقُّ مَصْدَرُكَ
فَمَا أَحَدٌ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ يَكْتُمُكَ
فَهُمْ رَهْطُكَ الْغُرَّ الْكِرَامُ وَمَعَشْرُكَ
فَمَا تَسْتَطِيعُ الْحَادِثَاتُ تَغْفِيرُكَ
بِهِ يَنْصُرُ اللَّهُ الْوَلِيَّ وَيَنْصُرُكَ
وَأَبْيَضُكَ الْمَوْتُ الْمُرْجَى وَأَسْمَرُكَ
وَأَنْسَى لَسَهُ بِالنَّضْرِ وَاللَّهُ يَنْصُرُكَ
تَبَارَكَ فِي تَذْيِيرِهِ مُتَحَبِّرُكَ
فَهَذَا اسْمُكَ الْأَوَّلَى يَوْضِفُكَ يُشْهَرُكَ
كَمَا قَدْ تَسَمَّى تَبَلُّ مِنْ لَيْسَ يَعْشُرُكَ
فَسَيْفُكَ بِالنَّضْرِ الْقَرِيبُ يُيَسِّرُكَ
فَمَا أَحَدٌ فِي كُلِّ ذَلِكَ يُنْكَسِرُكَ
فَسَيْفُكَ فَرْدًا فِي قِتَالِكَ عَسْكَرُكَ
بِرَأْيٍ مُصِيبٍ وَالْإِلَهُ يُدْبِرُكَ
وَوَعْدُكَ لِي بِالْبَدْلِ لَا شَكَّ يُنْذِرُكَ

(١) في الأصل: مجنى مع تشديد النون وفتحها، ولم نقف على صوابها.

وَهَذَا مَسِيحِي بِقَوْلِي شَاهِدٌ
 وَمَا زِلْتُ مُذْ عَايَنْتُ شَخْصَكَ دَائِبًا
 لَقَدْ ظَفَرْتَ كَفَّالًا بِأَلْمَالِ وَالْعِدَا
 وَثَقْتُ بِإَذْبَارِ النَّحُوسِ عَنِ السُّورَى
 أَبُو جَعْفَرٍ فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ وَافِرٌ
 سَيُورِدُكَ الْعَذَبَ الزُّلَالَ مُجْرَبٌ
 لَقَدْ ظَفَرْتَ كَفَّالًا مِنْهُ بِفَاصِلِ
 فَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ سِلْمًا مُطِيعَةً
 وَفُزْتَ بِمَا تَهْوَى وَصَالَتْ عَلَى الْعِدَا
 وَحَسْبِي بِهِ عَدْلًا بِوَعْدِكَ يُذَكِّرُكَ
 لَمَّا نَلْتَهُ أَنَّنِي عَلَيْكَ وَأَشْكُرُكَ
 بَرَأَيْ ابْنَ يَحْيَى الْقَرْمِ وَاللَّهُ يُظْفِرُكَ
 وَإِقْبَالَ سَبْعِدٍ حِينَ صَارَ يُدَبِّرُكَ
 بِهِ اللَّهُ بَعْدَ الْإِتْقَاصِ يُوقِّرُكَ
 عَلِيمٌ بِتَذْيِيرِ السُّورَى كَيْفَ يُضِدِّرُكَ
 بِهِ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ الْقَلِيلِ يُكْتَفِرُكَ
 تُوَقِّيكَ مَا تَخْشَاهُ فِيهَا وَتَحْفِرُكَ
 سُنُوكَ بِتَمْلِيكَ عَلَيْهِمْ وَأَشْهَرُكَ

سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

وكان الناس قد سُروا بولاية أبي بكر النقيب محمد بن جعفر، فنأدى برفع
 المؤن واشترط ذلك، فلما استهل شهر المحرم طولب بسنة أسكورج، فعقد على
 إبراهيم بن شمحور الفروقي الجانب الشرقي والصحراء والأبواب بسبعة
 آلاف درهم في كل شهر.

وتضمن محمد بن محمد تازي البيض وأعماله بثلاثة آلاف درهم، وعقدت
 الشرقية وما فيها من الأعمال على أحمد بن جعفر المعروف بابن الشرطي بثمانية
 آلاف سوى الاستثناءات فإنها خمسة آلاف درهم، وضمنت دجلة والناصر
 الأعلى بخمسمائة دينار، وعقد القيار بألفي درهم، فصار الجميع نيفًا وثلاثين
 ألف درهم في الشهر.

فلقي الناس من ذلك عتًا، وتعرم أصحاب الأرباع والمصالح على الناس،

والنقيب كاره لذلك لا يعرف مثله.

وكثرت الكبسات، ووثق اللصوص بالمصانع والغرم، فكبسوا الناس ليلاً ولم يهابوا نهاراً، واجتمعوا فكان يوافي دار الرجل المقصود جيش اللصوص بالليل بالسيوف والنشاب، لو حوربوا لما وفاهم القليل.

واستلب كيس رجل يُعرف بغلام ابن الأبوارى الصيرفي مع المغرب، وفيه خمسة آلاف دينار ليلة الجمعة لأربع بقين من المحرم وكان الكيس على رأس حمال، فصاح الرجل والحمال، فرماه الناس بالأجر، ورماهم اللصوص بالنشاب، فتفرقوا عنهم، وبادروا ناحية دار علي بن عيسى، ونزلوا الشط إلى سميريات أعدت لهم، فأقر حارس الموضع أنهم أصحاب المعروف بابن بغرة، النازل بدار الترجمان في قصر عيسى، فأخذوا فأقر بعضهم أنه دفع المال إليه، وجحد هو أن يكون يعرف ذلك، وتعصب له بعض الأتراك وطاح المال.

وكان رجل يعرف بممراج استأمن من عسكر البريدي ومعه من اللصوص البطارقة الخذاق جماعة، فصار يخدم في دار أبي جعفر هو وأصحابه، يكسبون الناس ليلاً، ويعترضونهم في دجلة، ويجمع هو وأصحابه وكتابه النصراني المعروف بسكباج، لعنه الله، على النفقات والقيان والأنبذة والفسق.

وكان معه كلابزي قواد وكان مع زباشي التركي كلابزي مثله، فتغييرا على قنجة، وأعان كل واحد صاحبه، فجرت بينهما حرب وأمور قبيحة، ثم كانت خطوب، وقتل ممراج هذا، والحمد لله.

وظهر سعيد بن داود المسيحي، وعاد أخوه إلى خدمة الأمير والتطبيب له، وكان طبيبه قديماً، وذلك في المحرم.

ووجه ناصر الدولة بأبي عبد الله الحسين بن سعيد أبي العلاء مع غلام أبي بكر بن مقاتل إلى الشام، في جيش كثيف بعد أن أزاح عللهم لمحاربة ابن طفج

ودفعه عن الشام، فمضى حتى تجاوز حلب، فلقى جيش ابن طنج الأخشيد فهزموه وأسروا رجاله وغنموا أمواله، وولى هاربا في قلة يريد الرقة، فلما شارفها تقدم الخليفة المتقي لله بغلق أبوابها، ومنعه من دخولها فأقام أياما.

ووجه إلى الخليفة برسالة غليظة فأذن له ووبخه على تسريحه لقتال من لم يأمر بقتاله.

ووافى ابن طنج في أثره، فخرج ابن عمه سيف الدولة وقد كان ابن عمه—
تنحى عن الرقة، فأعطى المتقي لله مالا وفرق على جميع من معه مالا على
أقذارهم، فأمسك بذلك أرقامهم، ولو لا فعله ما كان بهم نهوض، ثم رجع ابن
طنج إلى حلب فيقال: إنه أعطى الخليفة مائة ألف دينار سوى الآلة والاثياب.

ووجه إلى الوزير بثلاثين ألف دينار، وإلى الحاجب أحمد بن خاقان بعشرة
آلاف دينار، هذا تآدى إلينا ولم نشاهده.

وزاد غلاء السعر على الناس فشغبوا في الجانب الغربي يوم الجمعة،
وتكلموا بالعظام، ومنعوا الإمام الصلاة، حتى انصرف أكثر الناس، ثم صلى
الإمام بمن بقي صلاة خفيفة.

وخرج الأمير أبو الوفاء إلى البثق بنهر عيسى، ومعه قواده ومال من خاص
ماله مؤملا سده، وذلك في أول المحرم فأقام أياما عليه، واجتهد هو وأبو
جعفر في النفقة، وإطلاق المال. ثم إن الله عز وجل لن يأذن في ذلك، فحمل
الماء أكثر العمل، واغتم الأمير لذلك غمًا شديدًا.

ولما وصل كتاب الحسن بن هارون إلى المتقي لله بما صنع، وجه المتقي لله
بأحمد بن عبد الله بن إسحاق القاضي من الرقة إلى الأمير أبي الوفاء المظفر
لتوكيد الأيمان عليه، وموافقته على شرائط شرطها له؛ ويشهد عدوله عليه،
ووجوه الهاشميين.

فوصل القاضي إلى بغداد يوم الخميس، لأربع خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، ففعل جميع ما تقدم به المتقي لله إليه، وكان قد وجه معه بخلع، وطوق ذهب، ليخلعها على الأمير إذا فرغ مما بينه وبينه، ففعل هذا كله إلا أمر الخلع.

وأمر الأمير بعمارة دار الخليفة، وبناء ما استهدم منها، وكان يركب بنفسه حتى يشاهد ذلك ويعاينه، وكان في الرسالة أن يخرج الأمير إلى واسط، فقال: هذا لا أجيب إليه، يعمل على أبي ابن طغج إذا قرب من بغداد خرجت وتلقيته، وأزلت كل ما في نفسه، فإذا صار في داره أمرني بما شاء حتى أفعله، وإن خرجت ولم أره كنت عند الناس عاصياً! وامتنع من أن يلبس الخلع بحضرة الخليفة إذا رآه، وكتب القاضي إلى الخليفة بإحكامه له جميع ما أراد، وأشار عليه بالمبادرة إلى الحضرة.

وعظم أمر اللصوص، وكبس الناس في منازلهم وقتلهم، وأخذ أموالهم. فولى الأمير أبو الوفاء الطوف رجلاً أعجمياً، وضم إليه جماعة فأفرط في أمر الطوف، وجرى إلى أشياء عظيمة، حتى تمنى الناس أنهم أعفوا منه.

ووجه الأمير بقوم من أصحابه، فأمرهم أن يكبسوا أهل الريف من النباذيين والقواديين، وتعطيل ما يجري من أمر النباذيين بدار الروم بالجانب الشرقي، ونسب ذلك إلى الجائليق، وأن له عليهم قائماً، وأنه يرسل أهل نحلته فيعوز بهم، وصادره على خمسين ألف درهم بوساطة طازاد وابن سنكلا، وعطف بعد ذلك على النباذيين والقواديين، فحبس منها وعاقب، وسكن أمر البلاء قليلاً.

وانكسف القمر ليلة السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر، وغاب كله.

وتحدث الناس بمجيء الخليفة المتقي لله إلى هيت، وخرج القاضي الخرقني إليه فعرفه جميع ما جرى، فسكن إلى ذلك ورجع القاضي إلى الأمير يعرفه،

فدخل بغداد يوم الثلاثاء للنصف من صفر.

وركبت مع أبي جعفر في الطيار، فأعلم الأمير أنه يتلقى الخليفة بالأنبار، فقدم الأمير الطيارات إلى باب الشامية، وقال للقاضي تعبر بالخليفة من المزرقه وهي قرية بأعلى قنبريل بفرسخين، حتى يدخل بغداد من الماء، ونصب الناس القباب بباب الطاق، وأخرج الأمير توزون أثقاله وجماله إلى باب الأنبار، وخرج يوم الأربعاء، وأقام في الطريق وسار يوم الخميس.

ولا والله ما سمعت بأعجب من أفعال المتقي لله كلها، أول خطئه، وتركه الرأي، وركوبه العوز: تركه دار مملكته، وخروجه عنها برأي الترجمان وأشباهه لغير سبب أوجب ذلك، ولا اضطرار دعا إليه. [و] الأمير توزون إلى وقته ذاك مطيع له تابع لما يشتهي، عالم مع ذلك أن الصواب والرأي غير ما تكلفه.

فمن ذلك: أن الأمير أقام بواسطة، ليستنطف الأموال بها، فكتب إليه: دع كل شيء، وصر إلي، ولعن الله المال! فراجعه فألح عليه فقدم، فخلع عليه وأمره. وأشار الأمير عليه أن يصالح بني البريدي إذ كانوا قد ظفروا بمجيئه بكثير من المال. وقال: نستعجل الأموال منهم، ونحن على أمرنا بعد ذلك. فخالفه، وقال لا بد من محاربتك لهم، وإزالة أمرهم، وكان رأي الأمير صواباً في هذا، فترك الرأي ولم يخالفه.

وانحدر هذا بعد أن قد كان كتب قبل ذلك بالإيقاع بسيف الدولة ليريجه الله هو بذلك من ناصر الدولة ببغداد، ولكرم الأمير توزون وحسن عهده ما ترك سيف الدولة حتى جاء لأسباب دعاها له، ولو أراد ما فاتته، ثم ما عامله من الخروج عن بغداد يرى الناس أنه فزع منه، وأن الأمير عاصي له.

ثم ما حمل ابن حمدان عليه من محاربتة مرة بعد مرة، على كراهة ابن حمدان للحرب، كل ذلك طمعاً من المتقي في إزالة الأمير عن مرتبته.

ومنها أنه كاتب صاحب خراسان يستنجده عليه، والأخشيذ بن طغيح بمثل ذلك، كل هذا هو فيه ظالم للأمير توزون، ثم إقباله بعد ذلك حتى وضع يده في يده، ظن أن الأمير هو حدث أعجمي نسي هذا كله، والله لو فعل [الرشيد] هذا بالمأمون في حلمة وعقله، وهو ابن له ما احتمله!

وأعجب من ظنه بأنه لا ذنب له ونهبانه ما فعله: ذهب الرأي عن جميع من معه ممن يدبره، وما ذهب على العقلاء، ولا على أهل الرأي. فلقد رأوا الذي فعله الأمير بالرأي قبل كونه.

[آخر أمر المتقي لله]

فكان قبض الأمير على المتقي لله يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر، وكان هذا كله بغير علم أبي جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد ولا اطلاع عليه، ولا مشاورة له فيه، ولا علم به إلا في وقته.

ولما توثق من المتقي لله في المضرب نهب أصحاب الأمير عسكره، فلم يقلت من جميع من كان معه أحد، وخرج قوم لتلقيه فنهبوا.

ووجه الأمير بصافي الخازن إلى دار ابن طاهر، لإحضار أبي القاسم عبد الله بن المكتفي بالله، وأخذ الخاتم من يد المتقي وسلمه إلى صافي.

فصار صافي إلى دار ابن طاهر، واستخرج عبد الله بن المكتفي بالله فألبسه ثياباً جاء بها معه ودفع إليه الخاتم وقلد سيف حمائل، وصار إلى مضرب الأمير، فعقد له الأمر، وكحل المتقي لله فصاح فأمر أصحاب الدبادب فضربوا بها، فصاح فلم يسمع صياحه، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله.

وكان هذا كله يوم السبت بالعشي، لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر، بل وجه في طلب الخليفة أبي القاسم قبل أن يقبض على المتقي.

وكان المتقي لله لما قرب الأمير منه، ولقيه ركب قبة نمور أهداها ابن طنجع له، فلما رآه الأمير أكب على الأرض فقبلها بين يديه مرتين فقال له: اصعد معي، فلم يصعد وكان عديله خادم له، فلما سايه وصار إلى السندية أحدق به الديلم، فقبض بعضهم على لجام بغلته العمارية، وعدل به، فأنزل المضرب، وتسلمت دوابه وجناثه التي كانت تقاد بين يديه، وأخذت خزائنه، ونهب عسكره كله.

وكان من أمره ما ذكرناه، فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا، أولها يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. وآخرها يوم السبت لإحدى عشرة ليلة من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

وما أعجب ما اتفق له من صحة الأخبار فيه، جاءت الرواية أن عمر الحادي والعشرين من الخلفاء أقل من ثلثي عمر الذي كان قبله وأكثر من نصفه، فكان كذلك.

وذكر بليناس في كتابه الذي ذكر فيه الكسوفات، وهو كتاب قديم قد ألف في قديم الدهر (أمر ملك بابل) فقال وأنا أحكي لفظه من كتابه، ومن طلب هذا الكتاب وجد ما ذكرته فيه على ما شرحت إن شاء الله.

قال بليناس: (انظر إلى سر غامض في لكسوفات، إذا كانت الشمس في الميزان، ووقع كسوف القمر، وهو في الحمل، وزحل في السرطان والمريخ في الجدي - هلك ملك بابل).

فاتفق هذا الكسوف على هذه الصفة بعينها، فكان بين الكسوف وبين هلاك المتقي لله أسبوع.

ذكر عمال المتقي لله وقت زوال أمره

أمير الأمراء: المظفر أبو الوفاء توزون.

وكاتبه المدبر للأمور: أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد. وعلى وزارته: أبو الحسين علي بن محمد بن مقله.

وعلى شرطته ببغداد من قبل الأمير توزون: أبو بكر محمد بن جعفر النقيب. وعلى قضائه: أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقى. وعلى كتبه ضياعه أبو العباس أحمد بن عبد الله الأصبهاني. وعلى الحسبة ببغداد: المعروف بالأسمر من أصحاب الأمير. وعلى حجبه: أبو العباس أحمد بن خاقان المفلحي، مولى أمير المؤمنين.

وإلى الأخشيذ أبي بكر أحمد بن طغج مولى أمير المؤمنين: مصر والشامات.

وإلى الحسن بن عبد الله بن حمدان أبي محمد: الموصل وديار ربيعة وديار بكر وقردى ويزيدى وبهذرا^(١).

وإلى نوح بن نصر بن أحمد الخراساني: خراسان.

وبفارس والأهواز وكورها وقشير ومناذر وسرق وأرجان: علي بن بويه. وأصبهان: الحسن بن بويه الديلمي، وكانا يقيمان الخطبة له.

وعلى الصلاة بالجانب الشرقي بمسجدي الرصافة ودار السلطان: الحسن بن عبد العزيز العباسي وولده.

وعلى الصلاة بالجانب الغربي في الجامع بمدينة أبي جعفر المنصور: ابن بريه الهاشمي من ولد المنصور.

(١) لم نقف عليها في ياقوت.

وعلى الصلاة بمسجد براثا: أبو الحسن أحمد بن الفضل بن عبد الملك
الهاشمي وابنه.

تمت أخبار المتقي لله، وهو آخر ما عمله الصولي من أخبار الخلفاء
والحمد لله العدل الذي لا يجور، وصلى الله على محمد وآله وسلم وهو
حسبنا ونعم الوكيل.